المحاضرة الرابعة:ابن شرف القيرواني:

هو عبد الله محمد ابن سعيد بن أحمد القيرواني ولد سنة (390ه) كاتب مترسل وشاعر مجيد وناقد مدقق، وقع بينه وبين ابن رشيق في القيروان ما وقع بين جرير والفرزدق في بني أمية.

تلقي العلم على أيدي طائفة من العلماء فأخذ النحو عن القزاز وأخذ الأدب عن الحصري، وعلم الحديث عن أبن عمر الفاسي، له مؤلفات كثيرة لم ينج منها إلا أعلام الكلام ،أو رسائل الانتقاد. و هذا الكتاب عبارة عن مقامة نقدية بطلها شخص عالم و أديب يدعى أبا الريان،تعرض فيها بالنقد إلى مجموعة كبيرة من الشعراء المشهورين من القدامى و المحدثين من المشارقة و المغاربة. توفي سنة460ه.

موضوع الشعر عند ابن شرف:

تكلم ابن شرف عن الشعر وعن عيوبه ومما قال: « إن أملح الشعر ما قلت عبارته وفهمت إشارته، ولمحت لمحه، وملحت ملحه ودققت حقائقه، وحققت رقائقه واستغني فيها باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ».

ومعنى هذا أن ابن شرف ينظر إلى الشعر الأروع والأجمل ما كان مليح الصفة باعتبار أن الشعر لا يكتسب هذه الملاحة إلا إذا كان قليل العبارة، مفهوم الإشارة، له وميض موجز بعيد عن التعقيد والغموض يغني متلقيه عن التطويل والتفصيل إلى درجة الهذر.

وهذا يذكرنا بالبحتري الذي يعرف الشعر بقوله:

والشعر لمح تكفي إشاراته وليس بالهذر طوّلت خطبته

وهو لا يقتصر على هذا المفهوم، بل يشير إلى أن أحسن الشعر ما كان معتدل المبنى ،معرب المعنى ؛يقول :"وأحسن الحسن منه-أي الشعر-ما اعتدل مبناه وأغرب معناه وزاد في محمودات الشعر على ما سواه". أي أن الشعر الجميل تكون ألفاظه على قدر معانيه،و تكون المعاني عميقة الفهم بعيدة الدلالة و الإشارات و المقاصد غير مطروق و لا مبتذل.

وبهذا فهو لم يأت بجديد في مفهوم الشعر، و إنما ردد ما قاله النقاد المغاربة و المشارقة.

وقد نقد " ابن شرف " امرؤ القيس في بعض شعره لفجوره وهذه نظرة أخلاقية دينية، كما نجده ينقد ابن هاني الأندلسي الذي وصفه بأنه: « رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد أخراه لرداءة عقله ورقة دينه، وضعف يقينه، ولو عقل لم تضق عليه معاني الشعر حتى يستعين عليها بالكفر».

ومع أن النزعة الخلقية كانت بارزة في نقد ابن شرف فإنه مع ذلك لم يغفل بعض المقاييس النقدية،منها حسن التصوير و اختراع المعاني ...

السرقات:

لم يغفل ابن شرف في كتابه أعلام الكلام مشكلة السرقات،و خصها بنص موجز و لكنه واضح، يقول: « ومن عيوب الشعر السرق وهو كثير الأجناس في شعر الناس، فمنها سرقة ألفاظ ومنها سرقة معان،و سرقة المعاني أخطر لأنها أخفى من الألفاظ ومنها سرقة المعنى كله ومنه سرقة البعض، ومنها مسروق باختصار في اللفظ وزيادة في المعني وهي أحسن السرقات، وقصور في المعني وهو أقبحها » ومنها سرقة بلا زيادة ولا نقصان والفضل في ذلك للمسروق منه ولا شيء للسارق كسرقة أبي نواس معنى أبي الشبص بكماله:

قال أبو الشيص:

وَقَفَ الْهَوَى بي حَيْثُ أنْتِ فَلَيْسَ لي مُتأخَّرٌ عَنهُ وَلاَ مُتَقدَّمُ

فسرقة ابن هاني (أبي نواس) بتمامه :

فما جازه جودٌ ولا حلٌ دونهُ ... ولكن يسيرُ الجُود حيثُ يسيرُ

فالسرقة المحمودة هي ما كانت باختصار في اللفظ وزيادة في المعني وبالمقابل فان أقبح السرقات التي تقع بزيادة الألفاظ مع قصورها عن المعاني، وهذا رأي منطقي معقول يدل على خبرة ابن شرف.

اللفظ والمعني:

حاول ابن شرف هو الآخر أن يقف موقفا وسطا،لكن يبدو أنه كان يهتم بالمعاني أكثر من اهتمامه بالألفاظ،ففي الشعر ألفاظ متداولة كثيرة الاستعمال و قد تكون مبتذلة، لكنك مع ذلك تجد معناه شريفا جيدا.

ثم يوافق فكرة ابن رشيق في اللفظ والمعنى في تشبيهه اللفظ بالجسم و المعنى بالروح،و يشترط الجودة، والأدب الجيد يتطلب سلامة الاثنين من العطب، والتقصير في اللفظ محتمل أما التقصير في المعنى فليس بوارد ولا محتمل. كما يشبه الألفاظ والمعاني تشبيها رائعا حتى صار مثلا يؤخذ وحكمه تحفظ فقال « المعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح، فالتكامل بينهما قائم والتلاؤم بينهما حاصل، فإن غاب صنو منهما أصيب صنوة الأخر بالجفاف والخور.ونلاحظ في هذا تأثر بابن قتيبة .و تكرار لما قاله النقاد المغاربة و المشارقة.

القديم والحديث :

أدلى هذا الناقد بدلوه في هذه القضية وقال على لسان ابن الريان : « وتحفظ من شيئين: أحدهما أن يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له والثاني

أن يحملك إصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له، فإن ذلك جور في الأحكام، وظلم من الحكام(النقاد) حتى تمحص قوليهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ».

وهذا لا يبتعد كثيرا عن رأي " ابن قتيبة " في هاته القضية.

نخلص من ذلك أن ابن شرف عرض بإيجاز لقضية القديم والحديث وذهب إلى التسوية بينهما مثله في ذلك مثل ابن رشيق، وعبد الكريم النهشلي وهذا يدل على وحدة النظرة والاتجاه عند نقاد المغرب العربي، يغلب عليها طابع السلفية المتحررة.

المطبوع و المصنوع:

لم يهتم بهذه القضية كثيرا ففي رسالته أعلام الكلام نقل فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام بطريقة موجزة جدا، وهو بذلك لم يعرض لموضوع المطبوع والمصنوع إلا بعض الشذرات الموجزة فتراه يتكلم عن البحتري فيقول عن شعره: « فلفظه ماء ثجاج، ودر رجراج، ومعناه سراج وهاج على أهدى منهاج يسبقه شعره ما يجيش به صدره...، طبع لا تكلف يعيبه ولا عناء يثنيه » وهذا اعتراف و إعجاب بالشعراء المطبوعين. فالبحتري شاعر مطبوع له صور وأخيلة بعيد عن التكلف والتصنع ولكن رغم هذا فلم يكن ضد طريقة الشعراء المصنعين، فهو يتحدث عن مسلم ابن الوليد، يقول:" كلامه مرصع ونظامه مصنع وغزله مستعذب (...).

وعليه فابن شرف لم يتحيز لفريق ولكنه حاول أن يصنف الشعراء إلى: أهل صنعة وأهل طبع. إلا أنه يميل إلى مذهب أهل الطبع.

المراجع:

-ابن رشيق:العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده.
-محمد مرتاض:النقد الأدبي في المغرب العربي.
-عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي.
-إحسان عباس:تاريخ النقد الأدبي عند العرب.
-بشير خلدون:الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.